الاستعارة التمثيلية في الحكم العطائية بين الأنماط التعبيرية والبِنى التركيبة

الدكتور

محمد سيد سلطان عبدالرحيم

الأستاذ المساعد بجامعة الأزهر

العدد الحادي والعشرون

للعام ١٤٣٨هـ / ٢٠١٧م

الجزء الرابع

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٧م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث

الحمد لله رب العالمين { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ } [البقرة: ٢٦٩]، والصلاة والسلام على رسول الله الذي آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب، وعلى آله وأصحابه وعلى كل من عُنى من علماء أمته هذا الإرث الشريف إبانة وشرحاً.

ثم أما بعد

فإني رأيت حكم الشيخ ابن عطاء الله الإسكندري – ﷺ – ذات عبارات رائقة، ومعاني حسنة فائقة، صفّيت من ناحية الأسلوب والصياغة، فكانت مثلا رائعا للأدب الرفيع، والأسلوب الرصين وصُفيّت من ناحية الفكرة، فكانت مثلا عاليا للفكر الإسلامي الصحيح الذي يسوق إلى تصفية الأعمال وتصحيح الأقوال.

ومن ثم أردت أن أبرز جانبا من جوانبها البلاغية – وما أكثرها – فوقع اختياري على صورة من الصور البيانية التي اشتملت عليها وهي "الاستعارة التمثيلية" وذلك لعدة أسباب:

السبب الأول:

أن الاستعارة من أدق أساليب البيان تعبيرا، وأرقها تأثيرا، وأجملها تصويرا، وأكملها تأدية للمعنى المراد.

ومن هنا كان الحس بالشيء ورؤيته في التشبيه غير الحس به ورؤيته في الاستعارة، وكأن بين أيدينا سلما تتعاقب درجاته، ويرتقي فيه الخيال درجة درجة، أو سلسلة تتواصل حلقاتها، ويمضي فيها الخيال واحدة بعد أخرى، تبدأ مع بداية

الحس بالمشابهة بين شيئين مختلفين، وتنتهي عند توهج الإحساس بصيرورتها شيئا واحدا، وهذا يقال في كل صورة من صور الاستعارة(١).

السبب الثاني:

أني قرأت الحكم كلها وهي أربع وستون ومئتان من الحكم البليغة فوجدت أكثر الألوان البيانية انتشارا هي الاستعارة فأردت أن أبرز جانبا من هذه الصورة البيانية المشرقة، وطريقة بنائها، كحكمة تصوغ أشرف المعاني الروحية في علاقة العبّاد والسالكين بخالقهم، كما تصوغ الدواء لكل داء باطني يحدث لهم أثناء سيرهم إلى الله – تعالى ـ .

السبب الثالث:

أن الحكم العطائية على وجه الخصوص لم تلق اهتماما من الدرس البلاغي المتخصص، الذي يبرز الجانب البلاغي الذي اشتملت عليه الحكم في أسلوبها البديع، ونظمها العالي وكلماتها المختارة، مع كونها من أرقى، وأدق صور النثر الفني في العربية.

من أجل ذلك أردت أن ألفت نظر الدارسين والباحثين إلى دراسة هذه الحكم، وما اشتملت عليه من صور بيانية وفنون بلاغية ينبغي أن يهتم بها الدارسون عامة، والمتخصصون في البلاغة على وجه الخصوص.. والله تعالى ولي التوفيق.

---

(١) ينظر: التصوير البياني: أ. د/ محمد أبو موسى صـ١٧٦، ط: مكتبة وهبة، ط: ثانية ١٤٠٠هـ /١٩٨٠م.

تمهيد

ويشتمل على:

أولا: **ترجمة للشيخ ابن عطاء الله – ﷺ – صاحب الحكم**.

هو الشيخ أحمد بن محمد بن عبدالكريم أبو الفضل تاج الدين بن عطاء الله الإسكندري، متصوف من علماء الشاذلية، مالكي المذهب ولد – ﷺ – في بدايات النصف الثاني من القرن السابع الهجري ولا يعرف على وجه التحديد السنة التي ولد فيها(١).

شيوخه:

تتلمذ في التصوف على يد شيخه أبي العباس المرسي – ﷺ – (ت٦٨٦هـ) ولازمه اثني عشر عاما. ولم يكن له شيخ في التصوف سواه.

أما شيوخه في العلوم الأخرى، فمنهم: الشيخ محي الدين محمد بن عبدالعزيز المازوني وكان إماما في النحو، والفقيه ناصر الدين المنيّر الجروي (ت ٦٨٣هـ) والشيخ شهاب الدين أحمد بن إسحاق الأبرقوهي (ت ٧٠١هـ) وأخذ الفلسفة وعلم الكلام عن الشيخ شمس الدين الأصبهاني (ت ٦٨٣هـ)(٢) وقد أسهم تلقيه العلم على أيدي هؤلاء الشيوخ – على اختلاف علومهم وتنوعها –

---

(١) ينظر: كشف الظنون لحاجي خليفة: ٣٧/١، ت: محمد عبدالقادر عطا، ط: دار الكتب العلمية، ط: أولى ٢٠٠٨م، والأعلام للزركلي: ١٢١/١، ١٢٢، ط: دار العلم للملايين، ط: الثانية عشر ١٩٩٧م.

(٢) ينظر: الطريقة الشاذلية وأعلامها لمحمد درنيقة صـ٢١، ط: المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت، ط: أولى ١٩٩٠م، وينظر: إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة الحسني صـ٧، ت: ماجد الكيلاني، ط: دار الخير، سوريا، ط: أولى ٢٠٠٥م.

كثيرا في صقل شخصيته العلمية، وجعله جامعا لعلوم كثيرة متنوعة، مما جعله صاحب ثقافة عالية، ونظر دقيق في سائر العلوم التي برع فيها.

تلاميذه:

من تلاميذه الإمام تقي الدين السبكي (ت ٧٥٦هـ) والد الإمام تاج الدين السبكي، والشيخ داود بن عمر المعروف بابن باخلا (ت ٧٣٣هـ) والشيخ أبوالعباس أحمد بن المليق الإسكندري الأصولي، والشيخ أبو الحسن علي القرافي[١].

مؤلفاته:

للشيخ – ﷺ – مؤلفات كثيرة متنوعة ما بين كتب ورسائل نذكر منها:

١- الحكم العطائية: ألفها إبان الشباب بتوجيه من شيخه أبي العباس المرسي، وتعدّ أول مؤلفاته وأكثرها انتشارا.
٢- المناجاة العطائية: وهي من روائع الأدب الصوفي ويرجح أنها ألفت مع الحكم.
٣- وصية إلى إخوانه بمدينة الإسكندرية وهي عبارة عن شرح لمعاني العناية الإلهية والمحبة والشكر والتوبة وغير ذلك من مقامات العابدين.
٤- التنوير في إسقاط التدبير.
٥- لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن.
٦- تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس.
٧- القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد.
٨- مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح.
٩- عنوان التوفيق في آداب الطريق.

---

(١) ينظر: إيقاظ الهمم صـ٩.

١٠- المرقى إلى القدس الأبقى.
١١- تحفة الخلّان في شرح نصيحة الإخوان[١].

وفاته:

توفي – ﷺ – بعد حياة حافلة بالعلم والتعليم والتأليف، بالمدرسة المنصورية بمصر، ثالث عشر جمادي الآخرة سنة تسع وسبعمائة (٧٠٩هـ – ١٣٠٩م) ودفن بسفح جبل المقطم بزاويته التي يتعبد فيها ومقامه فيها يزار[٢].

ثانيا: **الحكم العطائية وقيمتها**:

أهم دليل على أهمية الحكم هو كثرة الشروح التي كتبت عليها، فقد زادت على الخمسين شرحا، كما أنه تمت ترجمتها إلى لغات أخرى أجنبية. ولقد تحدث شراحها عن خصائصها الأدبية فاعتبروها من عيون النثر الأدبي الصوفي، تعتمد في أسلوبها على اختيار الألفاظ، وانتقاء الأساليب، والتنسيق بينها حتى تؤثر في نفس السامع أو القارئ، فهي مجموعة مقاطع من الكلام البليغ الجامع لأوسع المعاني بأقل العبارات.. كلها مستخلص من كتاب الله – تعالى – أو سنة رسول الله – ﷺ – .

واعتبرها بعض الدارسين أهم ما دونه ابن عطاء الله باعتبار أنها جامعة للقيم الأدبية والفكرية العظيمة؛ مما يفسر اشتغال العلماء بها وتعدد شروحها قديما وحديثا.

---

(١) ينظر: إيقاظ الهمم صـ٩، ابن عطاء الله وتصوفه الدكتور/ أبو الوفا الغنيمي التفتازاني صـ٧٩: ١١٢، ط: مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط: ثانية ١٩٦٩م.
(٢) ينظر: إيقاظ الهمم شرح الحكم صـ٩.

ومما يستدل به على أهميتها أنها درست في الجامع الأزهر، وجامع الزيتونة، وجامع القرويين، وبعض مساجد الشام. غير أن فترة تدريسها لم تحدد(١).

ومما يدل على عظم قيمتها البيانية ما شهد به الشيخ الداعية محمد الغزالي – ﷺ – حيث قال: "لقد أفدت إفادة عظيمة من ابن عطاء الله السكندري وقد شرحت جملة من حكمه في كتابي: "الجانب العاطفي من الإسلامي" وإذا كان سعد زغلول قد وصف أدب الرافعي بأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم، فإني مع إكباري للرافعي وأدبه – أرى أن كلمة "سعد" أصدق ما تكون في حكم ابن عطاء الله – ﷺ – "(٢).

وهي تنقسم ثلاثة أقسام: أما القسم الأول منها فيدور على محور التوحيد وحماية المسلم من أن يتسرب إليه شيء من المعاني الخفية الكثيرة للشرك.

وأما القسم الثاني فيدور على محور الأخلاق وتزكية النفس وتطهيرها من عيوبها الباطنية.

وأما القسم الثالث: فيدور على محور السلوك وأحكامه المختلفة(٣).

---

(١) ينظر: إحكام الحكم في شرح الحكم لأبي الطيب برهان الدين الأقصرائي صـ٤ – ٧، ت: عاصم الكيلاني، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: أولى ٢٠٠٨م، وكتاب شرح الحكم لابن عباد النفري صـ١٠٢، ت ودراسة: محمد عبدالمقصود، ط: مركز الأهرام، القاهرة، ط: أولى ١٩٨٨م.

(٢) مائة سؤال عن الإسلام للشيخ محمد الغزالي، ت: أ. د/ محمد عمارة صـ٦٥، ٦٦ الجزء الأول من هدية كبار العلماء التابعة لمجلة الأزهر، عدد المحرم ١٤٣٩هـ / أغسطس ٢٠١٧م.

(٣) الحكم العطائية شرح وتحليل: الشيخ/ محمد سعيد البوطي: ١٠/١، ط: دار الفكر، ط: ثانية ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

وكلما انتقلت من موضع إلى موضع ومن حكمة إلى حكمة أحسست بتغير المشاهد وتحول المعاهد، فتارة تجد نفسك في عالم يعمره من المعاني أرواح عالية في حلل من العبارات الزاهية، تطوف على النفوس، وتدنو من القلوب الصافية توحي إليها رشادها وتقوّم منها مرادها، وتنفر بها عن مداحض المزال إلى جواد الفضل والكمال.

وأحيانا تشهد عقلا نورانيا، لا يشبه خلقا جسدانيا فصل عن الموكب الإلهي واتصل بالروح الإنساني، فخلعه عن غاشيات الطبيعة، وسما به إلى الملكوت الأعلى، ونما به إلى مشهد النور الأجلى، وسكن به إلى عمار جانب التقديس، بعد استخلاصه من شوائب التلبيس.

فأجدر بالطالبين لنفائس اللغة والأساليب البليغة، والطالبين في التدرج لمراقبها أن يجعلوا هذه الحكم أهم محفوظهم وأفضل مأثورهم، مع تفهم معانيه في الأغراض التي جاءت لأجلها، وتأمل ألفاظه في المعاني التي صيغت للدلالة عليها؛ ليصيبوا بذلك أفضل غاية وينتهوا إلى خير نهاية[١].

(١) ينظر: الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده في الكتابات الاجتماعية صـ ٤١٠ – ٤١٢، ت وتقديم: الدكتور/ محمد عمارة، ط: دار الشروق، ط: ثانية لمكتبة الأسرة ٢٠٠٩/٢٠١١م.

منهج البحث:

أما عن منهج البحث، فلقد اتبعت فيه المنهج التحليلي للاستعارات التمثيلية عند صاحب الحكم، وذلك على حسب الأنماط التعبيرية والبنى التركيبية.

والمقصود من الأنماط التعبيرية أمور ثلاثة جاءت في أسلوب الشيخ ابن عطاء الله – ﷺ – :

الأول: امتداد المستعار منه، وهو الأصل في الاستعارة التمثيلية.

الثاني: امتداد المستعار له، وهو على عكس النمط الأول.

الثالث: المزاوجة بين المستعار منه والمستعار له، وإظهار ما فيها من تداخل يدل على دقة الصنعة التي لم تتوفر لغيره إلا في القليل النادر.

ففي النمط الأول: يراعى فيه مقابلة كل جزء من أجزاء هيئة المستعار منه (المذكور) لكل جزء من أجزاء هيئة المستعار له وكيف تناسبا ؟ ومن أي وجه ؟ سواء كان في جملة أو في جملتين أو ثلاث أو أربع.

وفي النمط الثاني: يراعى فيه امتداد التركيب في المستعار له حيث تبنى الاستعارة التمثيلية – أحيانا – على المكنية، ذلك أن الأصل أن تأتي التمثيلية تصريحية، حيث ترى المتكلم يذكر المستعار منه مفصلا، لأنه الغرض الذي يساق إليه الكلام، وبه يزداد وضوحا وبيانا، لكنه في هذا النمط يختلف.

وفي النمط الثالث: يراعى فيه المزج بين طرفي الاستعارة، والتداخل في البناء التركيبي فيهما، مع أن الأكثر في الاستعارة التمثيلية أن يكون كل طرف مستقلا في بنيته التركيبية ناحيا بها منحى ظاهرا مختلفا عن نظيره المقابل له.

فإذا نظرت – مثلا – إلى قولك: لمن يتردد في الأمر بين أن يفعله ويتركه: "أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى" تجد أن الأصل: أراك في ترددك كمن يقدم رجلا

ويؤخر أخرى، فشبه صورة تردده في ذلك الأمر بصورة تردد من قـــام ليـــذهب، فتارة يريد الذهاب وتارة لا يريد، فاستعمل في الصورة الأولى الكلام الدال علـــى الثانية.. والجامع بينهما، وهو الإقدام تارة والإحجام أخرى منتزع من عدة أمور.

أما عند صاحب الحكم فقد تتداخل الاستعارة في بنائها في جملة واحـــدة أو جملتين بحيث يصعب تخليصها إلا بمعاودة فكر وروية.

مدخل إلى الاستعارة التمثيلية

ذكر السكاكي الاستعارة التحقيقية وعد التمثيل منها(١).

وعدها ابن رشيق من باب "التمثيل"، وقال: "ومن ضروب الاستعارة التمثيلية، وهي المماثلة عند بعضهم، وذلك أن تمثل شيئا بشيء فيه إشارة كقول امرئ القيس الذي ابتدع هذا الفن وابتكره، ولم يأت أملح منه:

وما ذرفت عيناكِ إلا لتضربي ∴ بسَهْمَيْك في أعشار قلبٍ مُقَتَّل [الطويل]

فمثل عينها بسمهي الميسر، وله سبعة أنصباء، والرقيب، وله ثلاثة أنصباء، فصار جميع أعشار قلبه للسهمين اللذين مثل بهما عينيها ومثل قلبه بأعشار الجزور، فصارت له جهات الاستعارة والتمثيل(٢).

وعرفه الخطيب القزويني بقوله: "وأما المجاز المركب فهو اللفظ المركب المستعمل فيما يشبه بمعناه الأصلي بشبيه التمثيل، للمبالغة في التشبيه. أي تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بالأخرى ثم تدخل المشبهة في جنس المشبه بها مبالغة في التشبيه، فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه. كما كتب الوليد بن يزيد لما بويع بالخلافة إلى مروان بن محمد، وقد بلغه أنه متوقف في البيعة له: أما بعد فإني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت. والسلام. وإيضاحه أنه:

شبه صورة تردده في المبايعة بصورة تردد من قام ليذهب في أمر فتارة يريد الذهاب فيقدم رجلا، وتارة يريد عدم الذهاب فيؤخر أخرى.

---

(١) ينظر: مفتاح العلوم للسكاكي ص٣٧٧ وما بعدها: تحقيق زرزور ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط: أولى ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م وط: ثانية ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

(٢) العمدة لابن رشيق: ٢٧٧/١، ت: محمد محي الدين عبدالحميد، ط: دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، بلا تاريخ.

فاستعمل في الصورة الأولى الكلام الدال على الثانية، ووجه الشبه، وهو الإقدام تارة والإحجام أخرى منتزع أيضا من عدة أمور.

وكما يسمي المجاز المركب في مثل ذلك "استعارة تمثيلية" يسمى أيضا بـ "الاستعارة على سبيل التمثيل" وبـ "التمثيل على سبيل الاستعارة"(١) وإنما خصت بلفظ "التمثيل" و"التمثيلية" مع أن في كل استعارة "تمثيلا" أي- تشبيها-مبالغة في التنويه بشأنها، حتى كأن ما عداها ليس فيه تمثيل لأنها مثار فرسان البلاغة، حتى إنه لا يرضى من ذاق حلاوة البيان - ولو بطرف اللسان - أن يأتي بالاستعارة المفردة مع إمكان المركبة(٢).

وإذا كنت ترى في الاستعارة المبنية على التشبيه الصريح عند عبدالقاهر مذاقا حسنا في كثير من المواقع، كما ترى في غناء الأحجار وشج الآكام وجرح الصم، وما شابه ذلك فإن الاستعارة المبنية على تشبيه التمثيل تراها كما يقول: "تبلغ غاية شرفها، ويتسع لها كيف شاءت المجال في تفننها وتصرفها" ثم إنها تخلص إلى لطيفة روحانية فلا يبصرها إلا ذووا الأذهان الصافية والعقول النافذة والطباع السليمة، والنفوس المستعدة لأن تعي الحكمة وفصل الخطاب. ذلك لأن الاستعارة التمثيلية تبرز المعنى الذهني في صورة محسوسة، أو كما يقول: "أرتك تلك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسّمت حتى رأتها العيون"(٣).

---

(١) ينظر: الإيضاح ضمن شروح التلخيص: ١٤١/٤ وما بعدها، ط: دار السرور، بيروت، لبنان.

(٢) حسن الصنيع في المعاني والبيان والبديع للشيخ محمد البسيوني البيباني (ت ١٣١٠هـ) صـ٢١٢، ط: مطبعة كشيدة، ط: أولى ١٤٣٨هـ ٢٠١٧م.

(٣) أسرار البلاغة صـ ٤٣، ت: أ/ محمود شاكر، ط: دار المدنى بجدة، ط: أولى ١٤١٢هـ ١٩٩١م .

كما أنها تحاول أن تقبض بالكلمات الحسية على تلك الخطرات الروحية الدقيقة أو خبايا العقول – كما يقول عبدالقاهر – والتي تنفلت من الكلمات تفلتا خفيا وسريعا، فلا تخضع لها، ولا تنقاد لقالبها، فتؤدي أداء مباشرا، وإنما تتكي على هذه الصورة المحسوسة لتوحي بهذه الخطرات، وعلى قدر ما في نفوسنا من خصوبة، وما في ملكاتنا البيانية من قدرة على الاختيار والتصوير تكون قدرة الاستعارة ويكون ثراؤها(١).

هذا وسوف أتناول بالتحليل البلاغي ما رأيت من استعارات تمثيلية في الحكم العطائية، وذلك على حسب الأنماط التعبيرية والبِنَى التركيبية. كما تبين من منهج البحث.

(١) ينظر: التصوير البياني صـ٢٠٩، ٢١٠.

النمط الأول

"امتداد المستعار منه"

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول

امتداد المستعار منه في جملة واحدة قصيرة

مثل قول صاحب الحكم: "الطيُّ الحقيقيُّ أن تَطْوِيَ مسافةَ الدنيا عنك حتى ترى الآخرةَ أقربَ إليكَ مِنك"(١).

بيان الاستعارة:

مثل الشيخ – ﷺ – حال السالك في طريق الله – ﷻ – في عدم الاشتغال بلذات الدنيا وشهواتها وعدم الركون إليها، حتى يرى الآخرة عيانا ليست غائبة عنه، بحال مسافر إلى مكان بعيد طويت له الأرض طيا فرأى آخرها في أولها. والجامع: هيئة حصول شيء بعيد الوقوع في الحال والوقت.

بنية الاستعارة:

ويلاحظ أنه عبر بمادة الطي "أن تطوى" وبنائها للمعلوم لما فيهما من دلالتين: الأولى: دلالة اختيار السلوك بإرادة وعزيمة شديدة فيهما، ومن هنا أحدث التركيز والقِصَر لما هو ممتد بعيد المسافة ولذلك لم يقل: "أن تطوى الدنيا عنك" لأنه أراد البعد الزمني.

---

(١) الحكم العطائية – شرح الشيخ عبد الله الشرقاوى صـ ١٠١، تقديم ومراجعة: د/ عطية مصطفى، مطبعة كشيدة.

ولو قال: أن تطوى الدنيا لدل على القرب، أما التعبير بمسافة الدنيا فيتناسب مع الطي، لأن الطي ضم الشيء بعضه على بعض أو لف بعضه فوق بعض والمراد به هنا القطع والاجتياز المعنوي بالقلب، و "تري" ترشيح للاستعارة كما يلاحظ أن الشيخ لم يكثر من قيود الاستعارة ههنا، بل اكتفى بجملة وجيزة مركزة مكونة من فعل ومفعول وقيد، وذلك لمحاكاة قصر الجملة المبنية عليها الاستعارة، لقصر المدة الزمنية التي أراد قطعها في الدنيا.

كما أنه لا يمكن أن تطوى عن العبد مسافة الدنيا إلا إذا أشرق نور اليقين في قلبه، فحينئذ تنعدم الدنيا في نظره، ويرى الآخرة حاضرة لديه موجودة عنده، ومن كانت هذه مشاهدته، لا يتصور منه حب الفاني وهو الدنيا واستبداله بالباقي وهو الآخرة، أما إذا لم يشرق نور اليقين في قلبه كان راغبا في الدنيا، مؤثرا لها على الآخرة، راكنا إليها وغائبا عن مولاه لضعف يقينه وتقواه(١).

هذا ويجوز أن يكون فى كلمة "الطي" استعارة تصريحية أصلية لأن حقيقة الطى قطع المسافة المكانية بينما استعمله الشيخ فى قطع المسافة الزمانية.

ومن هذا النمط ما جاءت فيه الاستعارة في جملة واحدة كذلك قول صاحب الحكم في سياق ذكر خفايا ألطافه – تعالى – ومننه على عباده: "أَشْهدَكَ من قبل أن يَستَشْهِدَك، فنطقتْ بإلهيَّته الظَّواهرُ وتحقَّقتْ بأحديَّته القلوبُ والسرائرُ"(٢).

بيان الاستعارة:

مثل الشيخ – ﷺ – حال ما في الكون من دلائل الألوهية وعلائم الوحدانية بحال متكلم يفصح عن أدلة وحدانية الله – ﷻ –، ويعدّها عدّا ويبسطها بسطاً

(١) ينظر: شرح الحكم لابن عباد النفزي: ٢٣٦/١، ٢٣٧، ت: الشيخ الدكتور/ عبدالحليم محمود، د/ محمود بن الشريف.ط مكتبة النجاح- طرابلس – ليبيا

(٢) الحكم العطائية – شرح الشيخ الشرقاوى صـ ٢٢٢

حتى تسمع من حوله، والجامع بينهما حصول شيء يُعاين بالنظر بعد معرفته بالقلب وعلم اليقين.

بنية الاستعارة:

ولعل بناء الاستعارة على دلالة عموم نطق الأكوان كلها بوحدانية الله – ﷻ – أولى في بنيتها من تخصيص موصوف مقدر بالجوارح الظاهرة كما ذهب إليه ابن عباد النفزي وتبعه شراح الحكم، إذ قدر موصوفا – أي الجوارح الظاهرة – يرجع إلى الاستشهاد في "يستشهدك"، وهذا العموم أولى لمراد الشيخ ابن عطاء، فيكون المعنى أن كل شيء في الكون يشهد بألوهيته(١).

ذلك بأن الله – تعالى – أطلع الإنسان منذ أن تفتحت مدارك عقله على ما هو مبثوث في الكون من دلائل وجوده والبراهين الناطقة بوحدانيته وباهر صفاته وأيد هذه الأدلة الكونية الكثيرة ببعثة الرسل وما أيدهم به من المعجزات التي تؤكد صدقهم، وهكذا فقد أشهدهم بآثاره الكونية وببعثة رسله – عليهم السلام – ودلهم على وحدانيته ... ثم إنه استشهدهم بعد ذلك على ما شهدوه، وقوله: "فنطقت بألوهيته الظواهر ... إلخ" بيان للإشهاد وليس انتقالا إلى الحديث عن الاستشهاد(٢).

وإنما اختار لفظ النطق: للدلالة على شدة الوضوح في الوحدانية، وأنها تصل إلى الجميع وصولا يستوي فيه الكل ابتداء، ثم يختلفون في طريقة الوصول.

كما أن النطق يتعلق بالسمع، ولا مدخل للإنسان في حجبه اختيارا، بخلاف المبصرات، فالإنسان يمكن أن يغض بصره عما يرى.

---

(١) ينظر: شرح الحكم لابن عباد: ١٩١/٢، ت: الدكتور/ عبدالحليم محمود، وشرح الحكم للشيخ عبدالله الشرقاوي صـ٢٢٢، وشرح الحكم للشيخ/ محمد خليل الخطيب صـ٦٧.
(٢) ينظر: شرح الحكم للدكتور/ محمد سعيد البوطي: ٤١٣/٤.

من أجل ذلك كانت الاستعارة هنا أقوى في الدلالة على المراد من الحقيقة.

وعطف جملة الاستعارة "فنطقت!... إلخ" بالفاء على ما قبلها للدلالة على المبادرة والسرعة في إشهاد الناس وحدانيته – سبحانه – وكيف أنه قدم القيد "بإلهيته" على المسند إليه "الظواهر" في البناء الاستعاري، للدلالة على أن الغرض مما ذكره ليس مجرد تأمل فلسفي في الكون، ولا استنطاق عجائبه من دون الوصول من ذلك إلى وحدانيته وعظمة ألوهيته، والتحقق من أحديته عن طريق القلوب والسرائر ونور البصائر.

ويجوز أن يكون فى قوله: "فنطقت بإلهيته الظواهر ... الخ" استعارة تبعية حيث استعير النطق للدلالة ولكن ليس من الإنصاف أن يقال فى مثل هذه الحكمة إن الدلالة جاءت من استعمال كلمة مجازية، لأن فى ذلك إهدارا لدلالة تولدت فى الحقيقة من هيئة متكاملة، وفرق بين أن يكون مركز الدلالة كلمة مفردة، وأن يكون خيوطا متشابكة تولدت من تشابكها صورة بينة الملامح والابعاد، ينساب المعنى من أعطافها وأجزائها ومطاويها(١).

ومن هذا النمط أيضا امتداد المستعار منه في جملة مكونة من أجزاء، وذلك مثل قول صاحب الحكم في سياق بيان الأنوار ورتبتها: " أَنارَ الظَّواهرَ بأنْوارِ

(١) ينظر: التصوير البيانى – أ.د/ محمد أبو موسى صـ ٢٣٦.
ـ قال الشيخ الطاهر بن عاشور في معرض حديثه عن الاستعارة التمثيلية في قوله تعالى " إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض ... الآية ٧٢ من سورة الأحزاب . وقرينة الاستعارة حالية وهي عدم صحة تعلق العرض والإباء بالسموات والأرض والجبال لانتفاء إدراكها ... ولذلك فأفعال ـ عرضنا ـ وأبين ـ ويحملنها ـ وأشفقن منها أجزاء للمركب التمثيلي وهذه الأجزاء صالحة لأن يكون كل منها استعارة مفردة .... ثم قال : ومثل هذه الاستعارات كثيرة في الكلام البليغ ، وصلوحية المركب التمثيلي للانحلال بأجزائه إلى استعارات معدودة من كمال بلاغة ذلك التمثيل . التحرير والتنوير ج ٢٢ / ص ١٢٦.

آثَارِهِ، وأنارَ القلوبَ بأنْوارِ أَوْصَافِه، لأَجْلِ ذلك أَفَلَتْ أنْوارُ الظَّوَاهرِ، ولَم تأفُل أَنوارُ القُلُوبِ والسَّرائرِ "، ولذلك قيل:

إن شمسَ النَّهارِ تغرُبُ باللَّيلِ ∴ وشَمْسُ القُلُوبِ ليستْ تغِيبُ[1]

بيان الاستعارة:

الاستعارة هنا في البيت الذي استشهد به الشيخ، وقبله:

طلعتْ شمسُ من أُحِبُّ بلَيلٍ ∴ فاستضَاءتْ فَمَالهَا من غُرُوبِ

وقد مثل حال القلوب المستنيرة بنور الله – ﷻ – الدائم، الذي لا يغيب ولا ينقطع بحال السائر في الطريق، والشمس طالعة تكشف له ما يمكن أن يقع فيه من مخاطر وأضرار... والجامع بينهما الظهور والانكشاف العاصمين من الضرر مع هذه الاستعارة ترى مقابلة كل جزء من أجزاء المستعار منه لكل جزء من أجزاء المستعار له.

فإذا كانت شمس النهار هنا مقابلة للأنوار والآثار، فلما بينهما من تناسب ظاهر في الكشف والإظهار لما هو أمام النفس أو العين، وحتى لا يقع السائر في الطريق الحسية، أو في الطريق إلى الله فيما يكره، ثم فضّل الأنوار التي هي مستعارة لها "شمس القلوب" على "شمس النهار" التي هي مستعارة منها، زيادة في بلاغة الصورة، فنقل الصورة من قربها وابتذالها في (تشبيه الأنوار الساطعة بالشمس) إلى بُعدها وغرابتها في تفضيل المشبه على المشبه به، فجعل المشبه لا يغيب؛ لاتصاله بما هو حاضر لا يغيب، وباق لا يفني وهو "أنواره – ﷻ – " بخلاف شمس النهار، فهي تغيب بالليل.

(١) الحكم العطائية – شرح الشيخ الشرقاوى صـ ١١٢.

ويلاحظ – أيضا – أن ابن عطاء في استعارته تلك وتصرفه فيها متأثر بما اطرد عليه الشعراء قديما وحديثا – من تشبيه الممدوح بالشمس ثم تفضيل وجه الممدوح عليها كما في قول المتنبي:

لم تلق هذا الوجه شمس نهارنا ∴ إلا بوجه ليس فيه حياء[١]

ويقول الشيخ صالح الجعفري – ﷺ – :

من فاق شمس الضحى والشمس قد غربت ∴ وضوء أحمد وقَّاد بجبْهته

الشمس تحجبها الأستار إن سترت ∴ وضوء نورك لم يحجب لرفعته

أنوار دينك للأعمى لقد ظهرت ∴ والشمس تخفى ولم تُدرك لمقلته

الليل زال ضياء الشمس فانسترت ∴ وضوء وجهك لم يحجب بظلمته[٢]

فنقل الاستعارة من القرب والابتذال إلى البعد والغرابة بتفضيل المستعار منه على المستعار له كنقل التشبيه من الابتذال إلى الغرابة، ذلك لأن الغرض من الاستعارة إظهار المبالغة في التشبيه، ويحصل ذلك الإظهار بادعاء دخول المشبه في جنس المشبه به مع تفضيل المشبه على المشبه به وهما أصل الاستعارة.

والمقصود من الاستعارة هنا أن الأمور الباقية هي التي ينبغي أن يغتبط بها ويُفرح بحصولها، ويعتنى بتربيتها ومراعاة حالها بخلاف الأمور الفانية الآفلة، وحينئذ يكون العبد على ملة إبراهيم – عليه السلام – حيث قال: { لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ } [الأنعام: ٧٦][٣].

---

(١) أسرار البلاغة صـ ٣١٦، ط: هـ. ريتر، وينظر: الإيضاح مع شرح التلخيص: ٤٦١/٣، ٤٦٢.

(٢) ديوان الجعفري: ١١٥/١، ط: أولى ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م، ط: مطبعة السعادة.

(٣) ينظر: شرح ابن عباد النفزي للحكم: ٧٩/١، وشرح الشيخ/ عبدالله الشرقاوي صـ١١٣.

المطلب الثاني

ما جاء فيه التفصيل في المستعار منه في جملتين

وذلك مثل قوله – ﷺ – في سياق حسن معاملة الله – ﷻ – لعباده المؤمنين المخلصين: "جَلّ ربُّنَا أن يعامِلَه العبدُ نقْداً فيُجَازِيَهُ نَسِيئَةً"(١).

بيان الاستعارة:

مثّل حال العبد في عمل الطاعات العاجلة وانتظار الثواب عليها من الله – تعالى – بحال المعاملة ومجازاتها، والجامع بينهما حالة انتظار الثواب من العمل من غير تأخير.

بناء الاستعارة:

والاستعارة هنا في بنائها التركيبي جاءت في جملتين، وهي أقرب إلى صورة الاحتباك(٢)، وذلك أنه دل بالأول على ما يناسبه من تعجيل الثواب، ودل بالتنزيه في صدر الجملة "جل ربنا" على الاستبعاد في عجزها(٣).

كما أن النظم مطرد فيه المقابلة للإيغال في عدم الحدوث، فقابل الرب بالعبد وقابل النقد بالنسيئة، وقابل العمل بالجزاء:

أما مقابلة العبد بالرب فلما في معنى الربوبية من معنى الإنعام والإحسان الذي يستبعد معه التأخير في الثواب، لتضاد تأخير الثواب للإنعام، كما أن مقابلة

---

(١) الحكم العطائية – شرح الشيخ الشرقاوى صـ ١٠٢.

(٢) سماه العلامة الزركشي الحذف المقابلي وهو: "أن يجتمع في الكلام متقابلان فيحذف من واحد منهما مقابلة لدلالة الآخر عليه". البرهان في علوم القرآن: ١٢٩/٣، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: مكتبة دار التراث، بلا تاريخ.

(٣) يشير إلى قوله تعالى: { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} [النحل: ٩٧].

النقد بالنسيئة مما يزيد تنزيه الوقوع بُعدًا، فهل يكون العبد أكرم من سيده ؟

كذلك في مقابلة العمل بالجزاء مع ترتب الثاني على الأول مباشرة في أصل الشرع[١] والنظم، وذلك ما يشعر به العطف بالفاء، التي تفيد الترتيب والتعقيب.

من أجل ذلك كله كان البناء التركيبي لصورة الاستعارة التمثيلية هنا قد قصد به التباين بين حالتين يستحيل اجتماعهما، ويتنزه المولى – سبحانه – عنهما، وهو أقرب إلى تحقيق غرضين:

الأول: الإقناع العقلي، إذ التضاد في البنية التركيبية مما يمنع العقل وقوعه.

الآخر: إثارة العاطفة في تنزيه المولى – تبارك وتعالى – عما يلحق النقص. ومن هنا تناسبت البنية التركيبية في أسلوب الاستعارة مع مطلع الحكمة بما يدل على التنزيه "جل ربنا".

وكأن الشيخ – ﷺ – يقول: إن الله – تعالى – أكرم وأرحم بعباده من أن يراهم وهم يؤدون حقوقه وينفذون أوامره في مواقيتها المحددة، لا يتأخرون ولا يتراخون في القيام بها على وجهها المطلوب، ثم يؤخر لهم نتائجها وثمراتها. إنه قد ألزم ذاته العلية أن يكرمهم بثمرات أعمالهم نقدا كما أنهم يعاملونه بأداء حقوقه وواجباته التي في أعناقهم نقدا[٢].

(١) لأن الأمر بسرعة تعجيل الأعمال الصالحة مما نصت عليه الشريعة.

(٢) ينظر: شرح الحكم للدكتور/ محمد سعيد البوطي: ٣٨٣/٢.

المطلب الثالث

ما جاء فيه التفصيل في المستعار منه في ثلاث جمل

وذلك مثل قوله – ﷺ – في سياق العزلة وخمول الذكر:

"ادفِنْ وجُودَكَ في أَرْضِ الخُمولِ، فَمَا نَبَتَ مما لمْ يُدفَنْ لَا يتمّ نِتَاجُه"(١).

بيان الاستعارة:

هذه الاستعارة من ملح الاستعارات وإجراؤها على صورتين:

الأولى: صورة الإثبات: فقد مثل حال الإنسان الذي يريد أن ينهض بمهامه؛ ويصل إلى تكوين ذاته فيتعهد نفسه بالتربية والتزكية، ويخليها من الشوائب في مرحلة من الانطواء على الذات، والابتعاد عن الأضواء وأسباب الشهرة وأحلام الزعامة = بحال النواة التي يراد استنابتها فتدفن في ظلمات التراب وباطن الأرض، وتترك على هذه الحال مدة من الزمن حتى تتفاعل مع ذاتها وتنضج ويتم نتاجها.

الآخرة: صورة النفي:

حيث مثّل حال من يقفز فوق هذه المرحلة، ويتجه رأسا إلى أسباب الشهرة والزعامة في بدايته = بحال الحبة التي ألقيت على وجه الأرض، فإذا نبتت يخرج نباتها ضعيفا مصفرا لا ينتفع به الانتفاع التام، وإن أنتجت فلا يتم نتاجها(٢).

---

(١) الحكم العطائية – شرح الشيخ الشرقاوى صـ ٣٨.

(٢) ينظر: شرح الحكم للدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطي: ١/١٥٧، ١٥٨، وشرح الشيخ عبدالله الشرقاوي صـ ٣٨.

من بديع هذه الاستعارة:

ومن بديع تركيب هذه الاستعارة عند الشيخ – ﷺ – : بناؤها عل الاحتباك فأنتج صورتين للاستعارة كل صورة تضاد الأخرى بالإثبات والنفي والعجب أنهما مرادان وواقعان:

الصورة الأولى: حيث ذكر الإثبات ممثلا في الأمر "ادفن وجودك" وحذف نتيجة هذا، إذ التقدير: تكن على نحو النبات الذي دفن أصله فعلا ونضج، بحيث لا تهلكه العاهات والعوارض الحادثات ...

الصورة الأخرى: حيث ذكر النفي في الجزاء، وحذفه في الصدر، إذ الأصل الكلام: ولا تتكلم على الناس وتظهر قبل أن تتمكن في العلم والعمل، فتكون كحال نبات ظهر ولم يدفن أصله، فتهلكه الرياح أينما هبت، فلا يثبت عند التحقيق والاحتياج إليه.

فظهور النبات يمر إذن بمرحلتين: مرحلة التأسيس، إذ يكون في باطن الأرض، ومرحلة النمو والعطاء، إذ يكون على ظاهرها تحت ضوء الشمس وأمام الأبصار.

القانون الإلهي واحد سواء فيما يتعلق بالنواة والبذور التي تُستنبت أو بالإنسان الذي يريد أن يكوّن ذاته(١).

وفي هذا أفضل توجيه لمن يريدون الظهور على عجل، ومن يتوهمون أن نصيبا قليلا من المعرفة والخبرة كاف في الترشيح لقيادة الجماهير والصدارة بين الناس(٢).

---

(١) ينظر: شرح الحكم للدكتور/ البوطي: ١٥٧/١.

(٢) ينظر: الجانب العاطفي من الإسلام للشيخ محمد الغزالي صـ١٣١.

وما أكثر الفساد الذي ينتشر اليوم في جنبات المجتمع الإنساني بسبب الإعراض عن هذا الذي يوصي به ابن عطاء الله – ﷺ – بسبب الكثير ممن يتَزَبّبُ وهو حِصْرِم(١).

إن منصب الإمامة في الدين أو في أي مجال من مجالات الحياة يتطلب صبر السنين وتغضين الجبين.

فليصنع المرء نفسه أولا في عزلة، وفي صمت، وفي تؤدة، كالشجرة التي يختفي أصلها في ظلمة التراب أمدا، تتكون فيه التكون الصحيح، ثم تبدأ تشق طريقها إلى الهواء والضوء، لتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها(٢).

(١) الحِصْرِم: أول العنب ما دام حامضا. المصباح المنير للفيومي صـ١٣٩، ت: د/ عبدالعظيم الشناوي، ط: دار المعارف، ط: ثانية.

(٢) ينظر: الجانب العاطفي من الإسلام للشيخ محمد الغزالي صـ١٣١.

المطلب الرابع

ما جاء فيه التفصيل في المستعار منه في أربع جمل

وذلك مثل قوله – ﷺ – في سياق التربية والسلوك والتبصير بكيفية الوصول إلى رضا الله – تعالى –: "كيفَ يُشْرِقُ قلبٌ صورُ الأكوانِ منطبعةٌ في مِرْآتِه ؟ أم كيفَ يرحلُ إلى اللهِ وهو مُكبَّلٌ بشَهَوَاته ؟ أم كيف يَطَمْعُ أن يدخُلَ حضرةَ اللهِ وهو لم يَتَطهّرْ من جَنَابَةِ غَفَلاتِه ؟ أم كَيفَ يرجُو أن يفهَمَ دَقَائِقَ الأسْرارِ وهو لم يَتُبْ من هَفَواتِه ؟ "(١).

بيان الاستعارة:

اشتملت هذه الحكمة المكونة من أربع جمل على استعارة كلية في النص كله حيث مثل حال الإنسان في الطمع في إشراق قلبه وتنويره، والرحلة إلى الله – ﷻ –، والدخول في حضرته، والفهم عنه، بحال قلب قيد بما يمنع من بلوغ غاياته بموانع أربعة:

ففي المانع الأول: مثل حال القلب المتعلق بالدنيا وزينتها بحال المرآة التي ينطبع فيها ما تتوجه إليه من صور.

ولما كان الانشغال بالأكوان، قد لا يمنع القلب من الوصول إلى الله – ﷻ – ارتقى في الاستبعاد أكثر فجعله مكبلا بالشهوات فزاد من النظر إلى الدنيا استغراقا في الشهوات فيها. فمثل حال القلب المنغمس في حب الشهوات النفسية حتى استعبدته بحال إنسان مكبل بالقيود، بحيث لا يستطيع الرحيل أو الانفكاك من هذه القيود الثقيلة التي لا يمكنه السير بها.

ثم ترقى إلى درجة أعظم من التي قبلها وهي الدخول إلى حضرة الله –

---

(١) الحكم العطائية – شرح الشيخ الشرقاوى صـ ٤٠.

تعالى – أي دائرة ولايته ومقام اختصاصه بخواص عباده وهو مقام مطهر لا يدخله إلا مطهر من جنابة الغفلة، كما لا يدخل المسجد إلا طاهر من الجنابة الحسية، فمثّل حال القلب الغافل المصر على غفلته الشبيهة بالجنابة بحال الإنسان الجنب الممنوع من دخول المسجد.

ثم ترقى إلى درجة أعظم وهي الفهم عن الله – تعالى – العلوم الدقيقة التي ترد على قلوب العارفين وهو لم يتب عن هفواته التي تقع منه لا عن قصد. فمثل حال القلب المصرّ على الهفوات والذلات لا يتوب منها بحال العبد المذنب الذي لم يتب من السقطات وإن كانت من غير قصد، فانتشر الرانُ على قلبه فعمي عن هفواته.

ويلاحظ في هذه الاستعارة أمور عدة:

١- التناسب بين كل مرحلة وما يضادها وكيف كانت مانعا.
٢- الانتقال في الصور الجزئية جاء على وجه الترقي، لأن كل واحد من هذه الأمور الأربعة سبب فيما بعده: فانطباع صور الأكوان في مرآة القلب سبب في تكبله بالشهوات، والتكبل بها سبب في الغفلة وهي السبب في كل هفوة، والهفوة سبب في عمى القلب.
٣- الاستنتاج: إحداث صورة كلية من هذه الجزئيات الأربعة يستحيل معها الوصول إلى حضرة الله – ﷻ –.
٤- تكوين الصورة الكلية الأخيرة ومدى تناسبها في السياق وذلك في إخراج الأغمض إلى الأظهر، أو ما لم يدرك بالحاسة إلى ما يدرك بها.

يقول الإمام عبدالقاهر الجرجاني – ﷺ – : " وإذا بحثنا عن ذلك – يعني تأثير التمثيل – وجدنا له أسبابا وعللا، كل منها يقضي أن يفخِّم المعنى بالتمثيل، وينبل ويشرف ويكمل.

فأول ذلك وأظهره، أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي، وتأتيها بصريح بعد مكنى، وأن تردها في الشيء تُعْلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس، وعما يُعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع؛ لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام وبلوغ الثقة فيه غاية التمام، كما قالوا: "ليس الخبر كالمعاينة" و "لا الظن كاليقين"(١).

٥- يتناسب هذا مع ابن عطاء الله، وكيف أنه أحس الأمر الغيبي المعنوى ورآه وعاينه فأخرجه للناس بصورة ما يعرفونه ويألفونه ويحسونه لغرض نبيل هو الوصول بهم إلى رضا الله تعالى.

الاستفهام الذي بنيت عليه الاستعارة:

الاستفهام الذي بني عليه التمثيل هنا يحتمل وجوها ثلاثة، وكل منها له تعلق في بنية الاستعارة:

الأول: أن يكون على وجه التعجب من حال قوم ادعوا الوصول إلى الله – سبحانه – مع بقائهم على تلك الموانع واتصافهم بها.

ولعل الداعي إلى هذا ما كان يكابده الشيخ من بعض الأدعياء، الذين طالما استبعدهم محققو الطريق وتبرأوا منهم.

الثاني: أن يكون الغرض من الاستفهام الاستبعاد، لأن تلك الأمور تبعد صاحبها عن مشاهدة آثار الربوبية وفهم الأسرار الربانية، وتمنعه عن معرفة الله بالكلية.

---

(١) أسرار البلاغة صـ١٢١.

الثالث: الاستحالة، وهو مقتضى الترقي في التركيب، والتضاد في البنـــاء وهما – لا ريب – لا يجتمعان على وجه مقتضى العقل.

ومن هنا كان الغرض الثالث من الاستفهام هو الأوفق بالاستعارة التمثيليـــة من وجوه ثلاثة:

الأول: بناء الاستعارة في أجزائها على التقابل على وجه التضاد وهو ممـــا يستحيل اجتماعه.

الثـاني: إيثار "أم" في التعبير عن الترقي بها، وهي – سواء أكانت متصلة أم منقطعة – تكون لإفادة الوصول عند تكرارها إلى المنع.

الثالـث: مادة أجزاء الاستعارة لا يجامع كل جزء منها ما يقابله في الجهة الأخرى فيستحيل الوقوع.

فمثلا: الرحلة تستلزم الحركة، والتكبل يستلزم القيد والسكون ولفظ الجلالة – بما يحمله من قدسية الصفات – يضاد الشهوات والحضرة – بما تستلزمه من الحضور والانتباه – مضادة للغفلة والسهو، والفهم يقابله الهفوات، التي تســـبب الران على القلب.

من أجل ذلك كله كانت كل مادة في دلالتها الخاصة مانعة من الاجتماع، مما يدل على الاستحالة من الاستفهام، وهو أرجـــح مـــن التعجـــب والاســـتبعاد؛ لأن الاستبعاد فيه معنى الوقوع وإن كان بعيدا، والتعجـــب لا يكـــون إلا مـــن الأمـــر الواقع[1].

(١) ينظر: شرح الحكم لابن عباد النفزي: ١٧/١، وشرح الشرقاوي صـــ٤١.

النمط الثاني

امتداد التركيب في المستعار له

في هذا النمط التركيبي للشيخ ابن عطاء – ﷺ – يُلحظ امتداد التركيب في المستعار له، حيث تأتي الاستعارة التمثيلية – أحيانا – مبنية على صورة مكنية، ذلك بأن الأصل أن تأتي التمثيلية تصريحية، حيث يذكر المستعار منه مفصلا في أحواله وصورته؛ لأن الغرض الذي يساق إليه الكلام وبه يزداد وضوحا وبيانا، لكنه في هذا النمط يختلف فيذكر التفصيل في المستعار له، ولا يذكر من أحوال المستعار منه إلا ما دل عليه الدليل.

وذلك مثل قول صاحب الحكم في سياق تزكية النفس بالعلم ارتقاء بها في منازل القرب: "العِلمُ النافِعُ هو الذي ينبَسِطُ في الصَّدْرِ شُعَاعُه، وينكَشِفُ بِه عن القَلْبِ قِنَاعُهُ"(١).

بيان الاستعارة:

مثل حال العلم النافع في قلب صاحبه العامل به بحال المصباح المنير إذا أدخل في بيت مظلم؛ فانقشع ظلامه، وانكشف ما فيه .

فذكر من أحوال المستعار له العلم النافع، وهو ما يقابل المصباح في المستعار منه، والذي دل عليه بالشعاع، ثم بيّن حال الصدر قبل وقوع العلم فيه من وجود الفشاوة، ويقابله حال البيت قبل إيقاد المصباح فيه، وما فيه من وجود الظلمة، ثم بين حال الصدر بعد وقوع العلم فيه من الهداية، وما يحدث للقلب في داخله من إيناس وقبول للحق، وهذا يقابله حال البيت بعد إيقاد المصباح فيه من الإنارة والضياء، وذهاب الظلمة.

---

(١) الحكم العطائية – شرح الشيخ الشرقاوى صـ ١٩٨.

بناء الاستعارة:

قيد العلم بكونه نافعا للدلالة على أن العلم يتلون بألوان المقاصد المستكنة في نفوس الذي يمارسونه تعلما أو تعليما.

ثم إن كلا من القلب والعقل يتلون بدوره هو الآخر بلون العلم الذي يمارسه صاحبه، فما كان منه نافعا يسري منه شعاع خفي ينبسط بعض منه على أنحاء القلب، فيظهر أثره على النفس؛ تعظيما ومهابة وحبا لله – ﷻ – وينير بعض منه طوايا العقل، فيظهر أثره في انحسار الأغشية التي كانت متراكمة عليه فأورثته الريب، وزجته في ظلمات الحيرة والاضطراب(١).

وقد جاء التعبير بالفعل المضارع في الموضعين "ينبسط وينكشف" للدلالة على أن العلم النافع يتجدد دائما، حتى ينشرح به الصدر، ويتنور به القلب؛ فينكشف به الران الذي يحجب عن رؤية الحق.

وقد جاءت هذه الاستعارة؛ تصويرا لفائدة العلم النافع في صدور الذين أوتوا العلم، وذلك حين يتأصل في حياة العالم، ويصير قيما ثابتة يفيض على الحياة في هذا الجانب النور الساطع الذي لا خداع فيه ولا مواربة، ولا كذب على النفس.

وهذا يعني أن السلوك الإنساني في هذا الجانب الأخلاقي من حياة الإنسان لابد أن يكون موصولا بالعلم والمعرفة بالله – تعالى – ومخافته، ماضيا على ما شرعه الله – تعالى – يحل حلاله، ويحرم حرامه. وهذا هو النور الذي ينبسط في الصدر شعاعه، ويكشف به عن القلب قناعه.

وتأمل كلمة "قناعه" وما فيها من دقة في الاختيار، حيث جعلت للقلب قناعا، وأصله في الدلالة اللغوية: هو ما تتقنع به المرأة من ثوب تغطي به رأسها

(١) ينظر: شرح الحكم للدكتور/ البوطي: ١/٥٠.

ومحاسنها(١).

ومن هنا فإذا حل النور على القلب زالت عنه الشكوك والأوهام؛ فصار مستنيرا بنفسه ومنوّرا لغيره.

وهذا ما أبرزته الاستعارة في قوة تصويرها المتجددة. كما يقول الإمام عبدالقاهر – ﷺ – في عموم فائدة الاستعارة "ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان أبدا في صورة مستجدة تزيد قدرهُ نبلا، وتوجب له بعد الفضل فضلا"(٢).

ومما جاء فيه التفصيل في المستعار له – أيضا – قول ابن عطاء الله في سياق بيان الأنوار ورتبتها: "رُبَّما وَرَدَتْ عليكَ الأنوارُ فَوَجَدَتِ القلبَ محْشُوًّا بِصُوَرِ الآثارِ فارتَحَلَتْ من حيثُ نَزَلتْ"(٣).

بيان الاستعارة:

أراد الشيخ بيان هيئة ما يرد على القلب من أنوار وأسرار، فلا يجده مؤهلا لما فيه من غفلات، وانشغال بالدنيا وشهواتها من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، فيذهب إلى مصدره الذي جاء منه ... بهيئة الناقة التي وردت مرعى ظنت أن فيه فائدة من زرع أخضر تأكل منه حتى تشبع، فوجدته أجرد لا زرع فيه ولا ماء؛ فتركته وارتحلت إلى مكانها الذي أتت منه.

---

(١) لسان العرب لابن منظور، مادة (قنع)، ط: دار إحياء التراث العربي، ط: ثالثة ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.

(٢) أسرار البلاغة صـ٤١، ت: هيلموت ريتر، ط: مكتبة المتنبي، ط: ثانية ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

(٣) الحكم العطائية – شرح الشيخ الشرقاوى صـ ١٣٢.

وذكر الارتحال قرينة على الناقة، وهو لازم من لوازم المستعار منه، وهذا النمط قليل الورود عند العرب.

بناء الاستعارة:

يلاحظ دقة بنية الاستعارة في المذكور منها حتى إنك تستطيع أن ترد كل جملة وكل كلمة إلى ما قدر فيها مما يقابلها، فتظهر الصورة واضحة، والعرض جليا.

فتراه آثر الورود دون الدخول – مثلا –؛ لأنه أراد استشراف الموارد للقلب؛ للنظر في مدى ملائمته لها... كحال الناقة التي تستشرف المرعى قبل الأكل منه؛ حتى لا يكون فيه ما يضرها.

ولو ذكر الوصول لفسد المعنى، إذ النور إذا دخل القلب لا يرحل عنه.

والمعنى الذي يريد ابن عطاء الله تصويره بهذه الاستعارة البديعة أن الأنوار الإلهية قد ترد على القلب فلا تجد فيه موضعا لاستقرارها؛ لما غلب عليه من رعونات البشرية، واستحكم فيه من صور الآثار الكونية؛ فترتحل من حيث تنزل، لأنها مقدسة مطهرة، وهذا المعنى قد عبر عنه في حكمة من النمط الأول بقوله: "كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته"(١).

ويجوز أن يكون فى قوله: "وردت عليك الأنوار... الخ" استعارة بالكناية وذلك فى وصف الأنوار بالورود، والورود لا يكون إلا من صفات الأشخاص، وكذلك وصف القلب بكونه محشوًّا بصور الآثار، وهذا لا يكون إلا فى الأمور الحسية كالدلو والكيس وكذلك الارتحال؛ لأنه من صفات الإنسان والرواحل.

---

(١) ينظر: شرح الحكم لابن عباد النفزي: ٢/٩٣، ت: الدكتور/ عبدالحليم محمود، والدكتور/ محمود بن الشريف.

النمط الثالث

المزج بين الطرفين في الاستعارة

هذا النمط الثالث من الاستعارة التمثيلية عند ابن عطاء الله ترى فيه المزج بين الطرفين والتداخل في البناء التركيبي فيهما سواء في جملة واحدة أو في جملتين بحيث يصعب تخليصها إلا بمعاودة فكر وروية.

وهذا نمط عال من النظم يتحد في الوضع، ويدق فيه الصنع. كما قال الشيخ عبدالقاهر – ﷺ –: "واعلم أن مما هو أصل في أن يَدِق النظر، ويغمض المسلك، في توخي المعاني التي عرفت: أن تتحد أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحدا، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك"(١).

فمن ذلك قول صاحب الحكم في سياق شكر النعم: "مَن لَمْ يُقْبِلْ على اللهِ بملاطَفَاتِ الإحسَانِ قُيِّد إِليْهِ بِسَلاسِلِ الامتِحَانِ"(٢).

بيان الاستعارة:

أراد تمثيل حال العبد في الإقبال على الله – تعالى – طوعا أو كرها، بحال المقبل على الملوك بين الاختيار رغبة أو الاضطرار قيدا أو قسرا.

والجامع بينهما: حصول هيئة مرادة على وجهين متضادين.

بنية الاستعارة:

ويلاحظ دقة بنية الاستعارة ههنا من وجوه ثلاثة:

---

(١) دلائل الإعجاز صـ ٩٣.

(٢) الحكم العطائية – شرح الشيخ الشرقاوى صـ ٨٢.

الأول: التداخل بين طرفيها، حيث صدر الجملة بما يناسب المستعار له وقيدها بما يناسب المستعار منه، وذلك أدخل في التناسق النصي.

الثاني: ما أشار إليه الشيخ عبدالقاهر– ﷺ – من دخول نمط الاستعارة هنا في النمط العالي مع المزاوجة بين الشرط والجزاء. فزاوج بين معنيين: الإقبال على الله – تعالى – على حالين متضادين: الاختيار والاضطرار.

الثالث: بناء الاستعارة على العموم والشمول؛ حتى تستغرق أفراد المخاطبين.

ومن هنا آثر "مَنْ" في صدر الجملة، وجعل جواب الشرط عاما في بناء الفعل للمجهول.

ويلاحظ أنه عدل عن البناء للمعلوم في صدر الجملة إلى البناء للمجهول في آخرها؛ ليحقق التناسب في الصورة؛ إذ أن ملاطفات الإحسان صورة مرضية مرجوة، يقبل الإنسان إليها بمحض اختياره، ويتمناها عند دعائه.

من أجل ذلك بني الفعل للمعلوم مع إيثار مادة الإقبال، لما في الصورة الأولى من رضا تام، وانشراح صدر ورغبة نفس، على حين أنه خالف في آخِرها وأخّرها، فتأخيرها ابتداء ليدل على تأخيرها في النفس، كما خالف في مادة الكلمة فعبر بالقيد، لما في القيد من ضيق وإحكام.

ومن ثم تضادت الصورتان، وإن اكتملتا في تحقيق المراد من الاستعارة في عموم السوق إلى الله – تعالى – .

وبقية أجزاء الصورة يكمل بعضها بعضا: فالقيد يتناسب مع السلاسل، والسلاسل تتلاءم مع الامتحان، وهي بكل أبعادها تتقابل مع ملاطفات الإحسان.

ويجوز أن يكون فى قوله: "من لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان ... الخ" استعارة تبعية فى الفعل "يقبل"، وكذلك فى قوله: "قُيد" يجوز أن تكون

استعارة تبعية، وذكر "السلاسل" قرينة لها، كما يجوز أن تكون استعارة مكنية فى كلمة "السلاسل" والقرينة "قيد" وهى استعارة تخييلية كما هو معلوم.

ومثل هذه الحكمة في المزاوجة بين الشرط والجزاء في صورة الاستعارة قول ابن عطاء الله – ﷺ – في سياق الشكر أيضا: "مَن لمْ يشْكُرِ النِّعَمَ فقد تعرَّضَ لِزَوَالِهَا، ومَنْ شَكَرها فقدْ قيَّدهَا بِعِقَالِها"(١).

بيان الاستعارة:

المراد هنا تمثيل حال النعم مع العبد بين الزوال والبقاء تبعا لحاله بين الشكر والكفر بحال استبقاء الإبل وغيرها أو ضياعها تبعا لعقلها محافظة عليها أو إهمالها وتعريضها للشرود والضياع.

والجامع بينهما حصول أمرٍ على وجهين متضادين تبعا لحالين مختلفين.

بناء الاستعارة:

ويلاحظ في بنية الاستعارة هنا أنها قائمة على أمرين:

الأول: الشرط والجزاء في الجملتين، والثاني: الموازنة بين الحالين وما يترتب عليها.

أما الأول: فليدل على العموم من وجه، واستلزام الجزاء من وجه آخر وبذلك يحصل الترغيب في الشكر أو الترهيب من الكفران على وجه آكد من غيره.

وأما الثاني: فإن وضع الضد إزاء الضد يزيد من التقبيح أو التحسين ويُظهر حال كل فريق على الانفراد، فلما تمايزا في العمل تمايزا في الجزاء، وبضدها تتميز الأشياء كما يقولون.

---

(١) الحكم العطائية – شرح الشيخ الشرقاوى صـ ٨٣.

كما يلاحظ أنه غاير بين الفقرتين، إذ جعل من عدم الشكر سببا للتعرض لزوال النعمة، من غير أن يجعل منه سببا لزوالها يقينا، ولكنه جعل من وجود الشكر والانضباط الدائم به سببا لبقاء النعمة بيقين، وذلك لإظهار الفرق بين الحالين ترغيبا وترهيبا(١).

ويجوز أن يكون فى قوله: "فقد قيدها بعقالها" استعارة مكنية؛ لأن العقال لا تكون إلا للإبل وذكر القيد استعارة تخييلية لعدم الزوال، كما يجوز أن يكون فى قوله: "قيدها" استعارة تبعية وذكر العقال قرينة لها.

ومن هذا النمط أيضا قوله في سياق الحديث عن الطمع وما يترتب عليه: "مَا بَسَقَتْ أَغْصَانُ ذُلٍّ إلا عَلَى بِذْرِ طَمَعٍ".

بيان هذه الاستعارة:

ذهب الشيخ عبدالله الشرقاوي – ﷺ – إلى أن الاستعارة هنا مكنية أو تصريحية فقال: "ما بسقت" يقال: بسقت النخلة بسوقا إذا طالت. أي ما طالت أغصان ذل إلا على بذر طمع. شبه الذل بشجرة ذات أغصان وفروع، استعارة بالكناية، والأغصان تخييل باق على حقيقته أو مستعار لأنواع الذل، و "بسقت" ترشيح باق على حقيقته. أو بمعنى وجدت وحصلت. وشبه الطمع بالنواة التي تنشأ عنها الشجرة، فإضافة "بذر" له من إضافة المشبه به للمشبه، أي طمع شبيه بالبذر، أي المبذور الذي تنشأ عنه الشجرة ذات الأغصان، فكأنه يقول: لا تغرس بذر الطمع في قلبك فتخرج منه شجرة الذل، وتتشعب أغصانها وفروعها"(٢) أ.هـ كلامه.

(١) شرح الحكم للدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطي: ١٥٤/٢.
(٢) شرح الحكم للشيخ الشرقاوي صـ٨٠، وينظر: شرح الشيخ أحمد بن زروق صـ١٤١.

وقفة مع ما ذهب إليه الشيخ الشرقاوي:

ولكن إذا تأملنا هذه الحكمة وجدناها من نوع الاستعارة التمثيلية. وذلك أنه أراد تمثيل حال الطامع في مذلته بهيئة الأغصان التي تبدو، خضراء مورقة في البداية، ثم عادت نهايتها إلى خسران وبوار، والجامع بينهما هيئة الخسران والانحطاط والمذلة بعد تصور الحصول. وإنما كان حمل الكلام على الاستعارة التمثيلية أولى من وجهين:

الأول: لأن الغرض من الحكمة مقابلة الصورة بالصورة، وهذا يوحي بالتنفير والتقبيح أكثر من حملها على الاستعارة بالكناية أو الاستعارة التصريحية.

الآخر: التناسق النصي في الحكمة وارتباط أولها بآخرها، لا سيما أن الاستعارة قد جاءت في ثوب جملة القصر بالنفي والاستثناء، وهو لا تنفك جملتاه، وإنما تتبع ثانيتهما الأولى على وجه المزيد بما يمنع أن تكون في كل منهما استعارة مفردة على وجه الاستقلال.

كما أن الاستعارة التمثيلية تتلاءم مع الغرض العام، وهو زيادة التقبيح في الصورة، لأنها تجعل الطمع في مقابلة المذلة. والمقصود من ثبت طمعه طال ذله.

وذلك لأن الطمع مقرون بثلاث:

١- التعلق بالمطموع.
٢- استشعار الخيبة عند الطمع، أو سلطة المعطي عند المساعدة.
٣- بذل ماء الوجه عند المواجهة[١].

كل ذلك أفادته صورة الاستعارة التمثيلية بما لا يتحقق في كل جزء منها على وجه الاستقلال.

---

(١) ينظر: شرح الحكم للشيخ أحمد بن زروق صـ١٤١.

بناء الاستعارة:

وانظر إلى دقة اختيار الكلمات التي تكونت منها صورة الاستعارة، ومدى دلالتها على الغرض المؤم "بسقت – أغصان ذل – بذر طمع".

وهذا عمود البلاغة عند الإمام الخطابي – ﷺ – حيث يوضع اللفظ في موضعه الأخص الأشكل الذي إذا أبدل مكانه غيره، جاء منه: إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة"(١).

فكلمة "بسقت" تدل على تناهي المذلة وامتدادها بما يزيد من تقبيحها، ولعل ما ذكره الشيخ الشرقاوي – ﷺ – من أنه لو قال: "ما بسقت شجرة الذل" لكان أولى، وتعليله لهذا بأن الذي يتصف بالطول هو أصل الشجرة غير سديد، فلم يوفق في تخطئة بناء ابن عطاء الله، حيث إن بناء المستعار منه على الأغصان أولى – عند التحقيق – من البناء على الشجرة لأمرين:

الأول: أنه بناه على الكناية، وطول الأغصان لازم لطول أصلها، وهو الشجرة، فهو كالدليل على طولها، وذكر الشيء بدليله أبلغ من ذكره خاليا عن الدليل، كما قال الإمام عبدالقاهر – ﷺ – :

أما "الكناية" فإن السبب في أن كان للإثبات بها مزية لا تكون للتصريح أن كل عاقل يعلم إذا رجع إلى نفسه أن إثبات الصفة بإثبات دليلها، وإيجابها ما هو شاهد في وجودها، آكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها، فتثبتها هكذا ساذجا غافلا، وذلك أنك لا تدعي شاهد الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف، وبحيث لا يشك فيه ولا يظن بالمخبر التجوّز والغلط"(٢).

---

(١) ينظر: إعجاز القرآن للخطابي ضمن ثلاث رسائل صـ١٢، ط: ثالثة، دار المعارف بمصر.
(٢) دلائل الإعجاز صـ٧٢.

الثاني: أن الأغصان تتناسب مع زيادة التقبيح المقصودة من الاستعارة، ذلك أن الغرض المراد هو ما ينتج من الطمع من ثمرات الكراهية والمذلة والتحقير...، كما تنتج الأغصان كريهة المنظر سيئة الرائحة، وهذه الثمرات الكريهة لا تكون من الشجرة نفسها، ولكن من الأغصان. فقابل الأغصان – إذن – بثمرات الطمع. ومن هنا تتحقق المقابلة.

وقوله "بذر طمع" فيه تحقيق للمشابهة في الاستعارة، ذلك بأن الطمع في أوله اشتهاء ورغبة؛ إذ هو "نزوع النفس إلى الشيء شهوة له" كما يقول الراغب الأصفهاني(١) فلا ينتج إلا الخيبة والبوار.

ومن هنا كان قوله "بذر طمع" مبنيا على التضاد الذهني بينهما بما يتناسب مع السخرية والتهكم من حال الطمع، وهو مقصود الصورة الاستعارية، فإذا كان الذل في حياة الإنسان شجرة قابلة للانتشار والنمو، فليست النواة التي تفجرت هذه الشجرة منها إلا الطمع(٢).

ومن هذا النمط العالي تلك الحكمة التي جاءت في سياق الاعتدال بين الخوف والرجاء، وهي قوله – ﷺ – : "إِذَا أَرَدْتَ أن يَفْتَحَ لَكَ بَابَ الرَّجَاء فاشْهَدْ مَا مِنُه إِلَيْكَ، وإِذَا أَرَدْتَ أن يَفْتَحَ لَكَ بَابَ الخَوْفِ فاشْهَدْ ما مِنْكَ إِلَيْه"(٣).

بيان الاستعارة:

حمل الشيخ الشرقاوي – ﷺ – هذه الحكمة على أن فيها استعارة مكنية أو أنها حقيقة فقال: فالرجاء والخوف حالان ينشآن عن المشاهدتين المذكورتين،

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن صـ٥٢٤، ت: صفوت عدنان داوودي، ط: دار القلم – دمشق، ط: أولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

(٢) ينظر: شرح الحكم للدكتور/ البوطي: ٢/١١٥.

(٣) الحكم العطائية – شرح الشيخ الشرقاوى صـ ١٤٦.

وشبههما بشيء عليه باب مغلق، استعارة بالكناية، والباب تخييل، والفتح ترشيح، أو الإضافة للبيان"[١].

ولكن الحمل على الاستعارة التمثيلية أولى من الإفراد في الاستعارة.

وهي تكون على وجهين:

أحدهما: في الجزء الأول: مثلت حال العبد المنعم عليه بنعم كثيرة لا تعد ولا تحصى بحال الإنسان الطامع يقف بباب الملك يرجو أن يفتح له باب مملكته وهو معترف بنواله مثنٍ عليه بفضله عليه. والجامع بينهما هيئة الراجي الطامع في الكرم.

ثانيهما: في الجزء الثاني: مثلت حال العبد المقصر في حق سيده، لعدم قيامه بما كلفه من عبادته وشكره على نعمه بحال الإنسان المسيء يقف على باب الملك، يرجو منه العفو والصفح والتجاوز عما فعل. والجامع بينهما: هيئة الخائف الوجل المشفق الذليل. والقرينة في الصورتين حالية.

بنية الاستعارة:

وقد بنيت صورة الاستعارتين على أسلوب الشرط المحقق "إذا"، ومن ثم ترى أجزاءه تتداخل وتتراكب، ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباطا ثان منها بأول وهذا هو النمط العالي من القول الممتاز.

كما أن الجمع بين الأمور المتضادة – كالخوف والرجاء – وكقوله: "ما منه إليك" و "ما منك إليه" يكسو الصورة جمالا وحسنا، ويزيدها بهاء ورونقا فالضد يظهر حسنه الضد.

---

(١) شرح الشيخ الشرقاوي صـ١٤٦.

فمن استحضر في نفسه ما أنعم الله به عليه من جلب المنافع، ودفع المضار من ولادته إلى وقته الذي يعيش فيه غلب عليه الرجاء والأمل.

ومن استحضر في نفسه المخالفات، وسوء الأدب والتقصير في جنب الله – تعالى – غلبه الخوف والوجل؛ فكف عن المعاصي وارتكاب الذنوب والخطايا(١).

ويجوز أن يحمل الكلام على استعارة ممتدة فيه: حيث أراد تمثيل حال العبد في تقلبه بين الرجاء والخوف بمشاهدة آثارهما معا، بحال فتح باب ورؤية مقتضاهما معا من الأمور المحسوسة.

ومن هنا – نص الشيخ على الشهود في المستعار منه، وهو لا يكون بإحاطة رؤية المحسوس.

ولعل تنوع تأويل الاستعارة على أحد الوجهين – من التجزئة أو الكلية – فالوجه الأول من الحمل على الاستعارتين في التمثيل محمول على غلبة أحد المعنيين على الناس، فشهد أحدهما باب الرجاء، وشهد الآخر باب الخوف.

وأما الثاني: فهو في فريق استجمع الخوف والرجاء معا، وشاهد مقتضاهما معا من غير استقلال بوصف.

من أجل ذلك كان كل وجه في الاستعارة مناسبا لحال كل فريق من الناس. ولعله عمد إلى هذا؛ فجعل الخطاب إلى غير معين في قوله: "أردت" في الأولى، و "أردتَ" في الثانية، و "لك" في الأولى، و"لكَ" في الثانية.

و"فاشهد" في الأولى، و"فاشهد" في الثانية، حتى يستغرق هذا المعنى التمثيلي لكل المخاطبين.

---

(١) ينظر: كشف الغطاء شرح ترتيب حكم ابن عطاء الله للشيخ/ محمد خليل الخطيب صـ٥٣، ط: مطبعة الشعراوي بطنطا، بلا تاريخ.

فهم لا يخرجون عن أحد رجال ثلاثة: إما رجل غلب عليه الرجاء بمشاهدة مقتضاه فقط، وإما رجل غلب عليه الخوف بمشاهدة مقتضاه فقط وإما رجل نظر إليها معا فاستوى على الطريق، وسار على النهج الصحيح، وبكل هذه الأحوال تنطق الاستعارة التمثيلية.

ومن هذا النمط أيضا قول صاحب الحكم – ﷺ – في سياق الزهد في الدنيا، وبيان ما يسهل على الإنسان فراقها بالقلب: "عَلِمَ أنَّكَ لا تَقْبَلُ النُّصْحَ المجَرَّدَ فَذَوَّقَكَ مِن ذَوَاقِهَا ما يُسَهِّلُ عليكَ فِرَاقَهَا"(١).

بيان الاستعارة:

حيث مثل الشيخ – ﷺ – حال ما يصيب الإنسان من ابتلاءات ومحن وأمراض تهوّن عليه فراق الدنيا، والزهد فيها بحال أشياء محسوسة مرة المذاق تنفر الإنسان من مشروبات أو مطعومات. بجامع استلزام الآلام للكراهية والنفرة عن الموجود.

بناء الاستعارة:

وتتجلى دقة بناء الاستعارة في اختيار التعبير بالإذاقة لأمرين:

الأول: الإحساس بالألم، لأن هذا هو الذي يفضي إلى التنفير من الدنيا والتزهيد فيها.

الآخر: أن الألم مقدر بقدره، وليس مصبوبا بما لا طاقة به للإنسان، إذ الذوق فيما يقل تناوله دون ما يكثر كما يقول الراغب الأصفهاني(٢).

(١) الحكم العطائية – شرح الشيخ الشرقاوى صـ ١٩٧.
(٢) مفردات القرآن صـ ٣٢٢.

ومن ثم يتناسب مع الجزء الثاني من الاستعارة في قوله: "ما يسهل عليك فراقها" فليس الغرض حصول الألم في ذاته، وإنما بمقدار ما يسهل الفراق.

وقد راعى في قوله: "فذوقك من ذواقها...إلخ" أمرين:

١- تكرار الذوق، فلم يقل: "ذوقك منها".

٢- إيثار ضمير الغيبة في قوله "ذواقها – فراقها" من غير أن يتقدم ذكر للدنيا.

إذ المعنى – لا محالة – فذوقك من ذواق الدنيا...إلخ" ولكنه لما أراد التنفير منها بما يسهل فراقها، لم يرد حضورها على اللسان تحقيرا لها وتزهيدا فيها، ومن هنا تناسبت البنية التركيبية للاستعارة بما يناسب غرض التمثيل فيها.

ويجوز أن يكون فى قوله: "فذوقك من ذواقها" استعارة تبعية فى الفعل، حيث شبه الابتلاء فى الدنيا وما يصاب به الإنسان من مصائب بشئ مرّ المذاق تنفر منه النفس.

ومن هذا النمط أيضا قوله – ﷺ – في سياق ذكر خفايا ألطاف الله – تعالى – ومننه على عباده: "جَعَلَهُ لَكَ عَدُوًّا لِيَحُوشَكَ[١] بِه إليْهِ وحَرَّكَ عليْكَ النفسَ لِيَدُومَ إِقْبَالُكَ عَلَيْهِ"[٢].

---

(١) قال الراغب في بيان قوله تعالى: { وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ } [يوسف: ٣١] أي: بعدا منه... وقيل الحَوْشي فحول جن نسبت إليها وحشة الصيد، وأحشته إذا جئته من حواليه لتصرفه إلى الحِبَالة، واحتوشوه وتحوشوه أتوه من جوانبه.
مفردات الراغب صـ ٢٦٤.

(٢) الحكم العطائية – شرح الشيخ الشرقاوى صـ ٢٠٤.

بيان الاستعارة:

مثل الشيخ – ﷺ – حال الإنسان وتقلبه في حاله مع الله تعالى بين البعد والإقبال بحال عبد وكل به سيده عدوا خارجيا وعدوا داخليا يلجآنه إلى العودة إلى سيده.

بناء الاستعارة:

الاستعارة هنا في بنائها التركيبي جاءت في جملتين متداخلتين بحيث يصعب تخليصها إلا بمعاودة فكر، وتأمل وروية.

وقد يكون تعمد هذا من ابن عطاء الله لمحاكاة صعوبة التخلص من هذه الحالة التي عليها الإنسان، فهو فيها حائر بين عداوة الشيطان وعداوة نفسه التي بين جنبيه، لا سيما في أول سلوكه الطريق، لا يكاد يميز بين الخير والشر حتى يجاهد نفسه، وينتصر على شيطانه.

ثم إن هذه الاستعارة تبعث صورا مستحسنة في التعبير، وتعطي التركيب عمقا وخصوبة في مدلوله، فانظر إلى قوله: "جعله لك عدوا" أي صيره لك عدوا خاصا، كما قال في القرآن: { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ } [فاطر: ٦] والتعبير بلام العاقبة في قوله: "ليحوشك به إليه" يثير في النفس معاني نفيسة عميقة، لأنك إذا عرفت أنه لا طاقة لك على مقابلته بنفسك؛ لما أتت عليه من غاية الضعف والعجز اضطررت – لا محالة – إلى الاستعانة عليه بمولاك القوي المتين، ووجد منك الالتجاء إليه والانتصار به والتوكل عليه في دفعه عنك، فعداوة الشيطان هي التي ردك الله بها إليه، وجمعك بها عليه، وهذا هو غاية المقصود.

وكذلك اللام في قوله: "وحرك عليك النفس ليدوم إقبالك عليه" أي: سلّط عليك النفس بمتابعة الهوى والشهوة "ليدوم إقبالك عليه" لأنك لا تقدر على مجاهدتها وقمع هواها الممتزج بلحمك ودمك إلا بمن هو أقوى منك، وليس ذلك

إلا مولاك، فقد دعاك بهذا إلى دوام الإقبال عليه... لا سيما، وهي أعدى لأعدائك، إذ بواسطتها يُتوصل إليك(١).

وهكذا اللام في كل الصور التي ترى فيها الآثار المترتبة على فعل الشـــيء كأنها عكس ما كان ينبغي أن يكون.

(١) ينظر: شرح الحكم للشيخ/ الشرقاوي صـــ ٢٠٤، ٢٠٥.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الأئمة الهداة.

ثم أما بعد

ثم بعد أن توقف القلم عن الإمداد من فيض حكم الشيخ ابن عطاء الله في أنماط استعاراته التمثيلية، يمكن رصد أهم النتائج التي شاعت في البحث واطردت فيه.

أولها: الكشف عن أثر بنية الاستعارة التمثيلية عند الشيخ في إظهار الصورة وتحقيقها، أو الترقي فيها واستكمالها..

ومن ثم أظهر البحث حرص الشيخ على العناية ببنائه التركيبي للاستعارة التمثيلية، وأن مدار حسنها عنده قائم على مراعاة نظمها وتركيبها، وهو ما يتناسب مع مذهب الإمام عبدالقاهر في حسن الاستعارة وقيامه على النظم، وليس التجوز وحده... وهذا مطرد في البحث كله.

ثانيها: عناية البحث بمادة المفردات التي تكونت منها الاستعارة التمثيلية، وليس بالبناء التركيبي فقط، وهذا تحليل يتجاوز التركيب إلى مفرداته المكونة له وخصائصها التعبيرية..

ففي كل مفردة من الإيحاءات والإشارات التي تتناسق مع التمثيل وتقوى منه، ومن هنا تستجلي الصورة أكثر، وتحقق الغرض منها أكمل تحقيق، وهذا – أيضا – مطرد في البحث كله..

ثالثها: لم يقف البحث عند النظم المذكور في الاستعارة التمثيلية، بل راح يتلمس ما فيه من مضمر في النص، ومقدر في الكلام، أراده الشيخ ودل عليه فيه

بقرائن، فجعل الشيخ عماد نظمه في بعضها الحذف التقابلي[١] وفي البعض الآخر استلزام الذات[٢]، للموصوفات ليترك للمتلقي حرية التأويل المنضبط...

رابعها: ربط البحث بين الاستعارة التمثيلية وبقية الألوان البلاغية، وكيف تآزرت مع الاستعارة لتحقيق صورتها.. بل أيد البحث تعدّي ذلك إلى بيان الأوجه التي يحتملها الأسلوب البلاغي، ثم رجح أقربها إلى الغرض المراد من الاستعارة، كما فعل ذلك مع الاستفهام ودلالته بين الاستبعاد وغيره...

خامسها: رد البحث بعض الآراء التي لم يرتضها في توجيه الاستعارة ودلالتها في كلام الشيخ، وراح يتلمس لها وجهاً أقرب إلى النظم، والغرض المراد منه ...

سادسها: حصر البحث أنماط البناء التركيبي للاستعارة التمثيلية عند الشيخ، فجعلها في أنماط ثلاثة قام عليها البحث كله... فهي إما تفصيل في المستعار منه... وهو للاستعارة الأكثر عنده على وجوه أربعة... وإما تفصيل في المستعار له، وهو قليل الورود، لعدوله عن الشائع الأكثر في كلام العرب...

وإما المزج بين الاثنين بنظم عجيب، ترى فيه تلويحا إلى كليهما؛ ليحدث الانسجام بين الجمل عن طريق الضمائر حينا، أو القيود أحيانا.

هذا، ومن الله التوفيق، وهو المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله.

---

(١) ينظر البحث صـ ٣٠٢٥ .

(٢) ينظر البحث صـ ٣٠١٩ .

مراجع البحث ومصادره

١- التصوير البياني. أ. د/ محمد أبو موسى، ط: مكتبة وهبة، ط: ثانية ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

٢- كشف الظنون. حاجي خليفة، ت: أ/ محمد عبدالقادر عطا، ط: دار الكتب العلمية، ط: أولى ٢٠٠٨م.

٣- الأعلام. أ/ خير الدين الزركلي، ط: دار العلم للملايين، ط: الثانية عشر ١٩٩٧م.

٤- الطريقة الشاذلية وأعلامها. أ/ محمد درنيقة، ط: المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت، ط: أولى ١٩٩٠م.

٥- إيقاظ الهمم في شرح الحكم الشيخ أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني، ت: ماجد الكيلاني، ط: دار الخير، سوريا، ط: أولى ٢٠٠٥م.

٦- ابن عطاء الله وتصوفه. الدكتور/ أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، ط: مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ط: ثانية ١٩٦٩م.

٧- إحكام الحكم في شرح الحكم. أبو الطيب برهان الدين الأقصرائي. ت: عاصم الكيلاني، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: أولى ٢٠٠٨م.

٨- غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية. أبو عبدالله محمد بن إبراهيم بن عبّاد النفزي الرّندي، ت ودراسة: محمد عبدالمقصود، ط: مركز الأهرام، ط: أولى ١٩٨٨م.

٩- غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية. ت: الدكتور/ عبدالحليم محمود، والدكتور/ محمود بن الشريف، ط: دار الكتب الحديثة، ط: أولى ١٣٨٠هـ ١٩٧٠م.

١٠- غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، ط: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأخيرة ١٣٥٨هـ ١٩٣٩م.

١١- الحكم العطائية، شرح وتحليل: الدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطي، ط: دار الفكر، ط: ثانية ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.
١٢- الأعمال الكاملة "في الكتابات الاجتماعية" الشيخ/ محمد عبده، ت وتقديم: الدكتور/ محمد عمارة، ط: دار الشروق، ط: ثانية، مكتبة الأسرة ٢٠٠٩ / ٢٠١٠.
١٣- مفتاح العلوم أبو يعقوب السكاكي. ت: أ/ نعيم زرزور، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: أولى ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
١٤- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. أبو الحسن بن رشيق القيرواني، ت: محمد محيي الدين عبدالحميد، ط: دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، بلا تاريخ.
١٥- الإيضاح ضمن شروح التلخيص. الخطيب القزويني، ط: دار السرور، بيروت، لبنان.
١٦- حسن الصنيع في المعاني والبيان والبديع. الشيخ/ محمد البسيوني الببياني، ط: مطبعة كشيدة، ط: أولى ١٤٣٨هـ ٢٠١٧م.
١٧- الجانب العاطفي من الإسلام. الشيخ/ محمد الغزالي، ط: دار الدعوة، ط: أولى ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.
١٨- لسان العرب. ابن منظور، ط: دار إحياء التراث العربي، ط: ثالثة ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.
١٩- أسرار البلاغة. الإمام عبدالقاهر الجرجاني. ت: هيلموت. ريتر، ط: مكتبة المتنبي، ط: ثانية ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.
٢٠- أسرار البلاغة. ت: أ/ محمود محمد شاكر، نشر: دار المدني بجدة، ط: أولى ١٤١٢هـ ١٩٩١م.
٢١- دلائل الإعجاز. الإمام عبدالقاهر الجرجاني، الناشر، ط: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط: ثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

٢٢- الحكم العطائية. شرح: الشيخ/ عبدالله الشرقاوي، تقديم ومراجعة: د/ عطية مصطفى، ط: مكتبة كشيدة ٢٠١٠م.
٢٣- كشف الغطاء شرح ترتيب حكم ابن عطاء الله. الشيخ/ محمد خليل الخطيب، ط: دار مطبعة الشعراوي بطنطا، بلا تاريخ.
٢٤- حكم ابن عطاء الله. شرح: الشيخ/ أحمد بن زروق، ت: الدكتور/ عبدالحليم محمود، الدكتور/ محمود بن الشريف، ط: مكتبة النجاح، طرابلس، ليبيا، بلا تاريخ.
٢٥- التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل علم البيان. أ.د/ محمد أبوموسى، ط: مكتبة وهبة، ط: ثانية ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.
٢٦- إعجاز القرآن. الإمام الخطابي – ضمن ثلاث رسائل – الخطابي – الرماني – عبدالقاهر الجرجاني، ط: ثالثة، دار المعارف بمصر.
٢٧- مفردات ألفاظ القرآن الراغب الأصفهاني، ت: صفوت عدنان داوودي، ط: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط: أولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

فهرس المحتويات

م	الموضوع	رقم الصفحة
١	مقدمة البحث	٢٩٩٩
٢	تمهيد	٣٠٠١
٣	مدخل إلى الاستعارة التمثيلية	٣٠٠٨
٤	**النمط الأول : امتداد المستعار منه**	٣٠١١
٥	المطلب الأول : امتداد المستعار منه في جملة واحدة قصيرة	٣٠١١
٦	المطلب الثاني : ما جاء فيه التفصيل في المستعار منه في جملتين	٣٠١٧
٧	المطلب الثالث : ما جاء فيه التفصيل في المستعار منه في ثلاث جمل	٣٠١٩
٨	المطلب الرابع : ما جاء فيه التفصيل في المستعار منه في أربع جمل	٣٠٢٢
٩	**النمط الثاني : امتداد التركيب في المستعار له**	٣٠٢٦
١٠	**النمط الثالث : المزج بين الطرفين في الاستعارة**	٣٠٣٠
١١	الخاتمة	٣٠٤٣
١٢	مراجع البحث ومصادره	٣٠٤٥
١٣	فهرس المحتويات	٣٠٤٨